Pragmatic Trends in Arabic Linguistic Heritage

Tajudeen Yusuf

International Islamic University of Malaysia

الدراسات التداولية عند العرب

تاج الدين يوسف

الجامعة الإسلامية الدولية في ماليزيا

Abstract

Upon examining Arabic grammatical and linguistic works, it becomes apparent that some Arab linguists had addressed what is known in Modern Linguistics as "pragmatics," especially in the field of rhetoric. This study investigates and highlights the roots of pragmatics in Arabic Medieval writings and attempts to uncover specific authors' contributions. Focus here is on the works of five traditional authors: Al-Jāhidh, Al-'Askari, Al-Jurjāni, Al-Sakkāki, and Hāzim Al-Qartājanni. From a pragmatic perspective, some modern linguists such as Leech claim that in order to understand human communication and expression, a number of factors inevitably need to be considered. These often include one's own knowledge about social distance, social status between the speakers involved, cultural knowledge such as politeness, and linguistic knowledge (explicit and implicit).

Although pragmatics is a relatively new branch of linguistics, a comparison between modern theories of pragmatics and the early works of some Arab scholars shows that there is a clear indication that Arab and modern linguists share some common theoretical and philosophical opinions on the foundations and applications of lexical semantics and pragmatics. It is obvious that some Arab scholars had addressed the importance of employing the linguistic context as well as the situational context in the interpretation of a text or an expression if a deeper and generally more reasonable account of human language behavior is sought. Arab authors had also addressed how the transmission of meaning depends not only on the linguistic knowledge of the speaker and listener, but also on the context of the utterance, knowledge about the status of those involved, and the inferred intent of the speaker. Moreover, their views on communicative acts or speech acts are not limited to their linguistic and rhetorical works; the importance of linguistic and non-linguistic components in interpreting communications is widely discussed in their works dealing with juristic, exegetical, and other studies.

Copyright © 2009, ISSN 1542-3921

مقدمة:

تفيد القراءة في التراث العربي القديم أن العرب، في دراساتهم اللغوية وغير اللغوية، قد قدموا جهودا لا يستهان بها في جميع القضايا اللغوية وخاصة ما عرف في اللسانيات الحديثة بالتداولية. ولقد اهتدى العلماء العرب في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والبلاغية إلى ظاهرة الأفعال الكلامية وما يحفها من ملابسات ، كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط، وقدموا لنا الكنوز اللغوية والبلاغية المخبوءة. بل إن جهودهم في الأفعال الكلامية لا تقتصر على التراث النحوي والبلاغي، فقد تناولوها كذلك في دراساتهم الأصولية والتفسيرية والفقهية وغيرها.

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز جذور اللسانيات التداولية في التراث العربي، ورسم إسهامات العرب في هذا الاتجاه اللغوي خلال الجهود العلمية اللغوية والبلاغية التي قدمها بعض علماء التراث، ويتناول المقال آراء خمسة من رواد البلاغيين العرب وأعلامهم: الجاحظ، والعسكري، والجرجاني، والسكاكي، وحازم القرطاجنّي. وتحتوي الدراسة على فصلين أساسيين بعد المقدمة، فيتناول الفصل الأول اللسانيات التداولية من حيث مفهومها، ونشأتها، والعلاقة بين السياق والتداولية. وأما الفصل الثاني فيعرض بعض إسهامات العرب في الدراسات التداولية.

١ً . اللسانيات التداولية:

١ – مفهوم التداولية:

التداولية ليست علماً لغوياً محضاً، أو علماً يكتفي بوصف وتفسير البنية اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، بل هي علم يعنى بالتواصل اللغوي الاستعمالي بصرف النظر عن العناصر الشكلية للغة وعلاقة بعضها ببعض في التركيب، يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي. ومن هنا جاء تسميتها: "علم الاستعمال اللغوي".[١] ويهتم الاتجاه التداولي أو الوظيفة التداولية بالدراسات اللغوية، والذي

[1] . (p. 3) Leech

تتلاقى فيه على وجه معين مجموعة من حقول العلوم المختلفة أهمها علم اللغة، والبلاغة، والمنطق، وفلسفة اللغة، وعلم الاجتماع، وغيرها من العلوم التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالدلالة.

وتعد اللسانيات التداولية فرعًا من اللسانيات الحديثة بوصفها دراسة التعامل اللغوي من حيث إنه جزء من التعامل الاجتماعي. وهو ينتقل من المستوى اللغوي والنحوي والنفسي للغة، إلى مستوى آخر، وهو المستوى الاجتماعي ودائرة التأثير والتأثر من خلال استعمال اللغة، بغية تحقيق التواصل.[٢]

وإذا كانت الدراسة التداولية لم تدرس دراسة لغوية مستقلة في القديم، فإنها قد وجدت مكانة مستقلة في الدراسات اللغوية الحديثة، إذ إن اللغة بوصفها وسيلة التواصل أو الاتصال، لا يمكن فهم طبيعتها إلا بعد فهم الوظيفة التداولية للغة، أي من خلال استعمالها في المجتمع.[٣]

وفي منطلق دراسة التعامل اللغوي ظهرت مجموعة من التيارات منها التيار البراغماتي لاستعمال الكلمة. ونتيجة لتعدد المنطلقات في الدراسات التداولية حدث نوع من التداخل بين حقولها وحقول أخرى. ويمكن أن يُرجَع أصل التداولية إلى اتجاهين: اتجاه يهتم بالجانب الاستعمالي للغة، بزعامة "أوستن"، ينطلق من كونها نظرية في التعامل الاجتماعي، واتجاه فلسفي منطقي تعود جذوره إلى "بيرس"[٤] الذي أطلق عليها اسم "البراغماتية"، و"جيمس"[٥] الذي سماها بـ"الذرائعية".[٦] ويرى بيرس في مقاله "Truth, Falsity and Error" أن جميع الأفكار ما هي إلا علامات، ولا يمكن فهم أي فكر خارج إطار السياق ودون اعتبار العلاقة بين مجموعة من العلامات. وعلى منواله سار جيمس.[٧]

والجدير بالذكر أن التداولية pragmatics والتي نحن بصددها تختلف عن المذهب الذرائعي في الفلسفة Pragmatism ومع ذلك يرى البعض أن الأخير هو مصدر من مصادر المذهب الأول،

---

[2] بوبكري (ص ١١) .

[3] Leech (p.3) .

[4] Ayer (p. 13) .

[5] يعد الفيلسوف وليم جيمس رفيقاً حميماً لـ(بيرس) طول حياته على حسب ما أقر به بعض مراجع، وعلي يده انتشر معظم أفكار بيرس الفلسفية. ينظر المرجع السابق: (p 13) .

[6] بوبكري (ص ١١) .

[7] انظر Pierce (1901) ; James (1907) .

ويعد موريس أول من أعطى تعريفاً للتداولية حيث اعتبرها جزءاً من السيميائية عندما ميّز بين ثلاثة فروع للسيميائية هي: **التركيب** (النحو) ويعني بذلك دراسة العلاقات الشكلية بين العلامات؛ **والدلالة** وهي دراسة علاقة العلامات بالأشياء؛[٨] **والتداولية** التي تعني بدراسة علاقة العلامات بمؤوليها. ولقد سارت التداولية منذ ذلك الوقت في اتجاهين هما: الدراسات اللسانية والدراسات الفلسفية. ففي الاتجاه الأول استعملت التداولية بوصفها جزءاً من السيميائية اللسانية وليس بعلاقتها بأنظمة العلامات عموماً. وما يزال هذا المنحى اللساني قائماً في اللسانيات عند الغرب حتى الآن.[٩]

٢- نشأة التداولية الحديثة:

اختلفت الآراء في الأسباب التي أدت إلى نشوء الدراسات التداولية في اللسانيات الحديثة، والاهتمام بها. فبعضها يرى أن التداولية بدأ الاهتمام بها باعتبارها ردود فعل على معالجات **تشومسكي** للغة بوصفها أداة تجريدية أو قدرة ذهنية قابلة للانفصال عن استعمالاتها ومستعمليها. وبعضها يذهب إلى قناعة مفادها أن المعرفة المتقدمة بالنحو والصوت والدلالة لم تستطع التعامل مع ظواهر معينة ذات أهمية بالغة؛ ويمكن اعتبار الإدراك المتزايد بوجود فجوة بين النظريات اللسانية من جهة ودراسة الاتصال اللغوي من جهة أخرى سبباً آخر في الاهتمام بالتداولية. ويضاف إلى ذلك اتجاه معظم التفسيرات اللسانية لمكونات داخلية بمعنى أن السمة اللغوية تُفسر بالإشارة إلى سمة لغوية أخرى أو إلى جوانب معينة من داخل النظرية، فظهرت الحاجة إلى تفسير ذي مرجعية خارجية وهنا ظهرت الوظيفية اتجاهاً ممهداً للتداولية.

والوحدات الكلامية للغة الطبيعية ليست مجرد سلسلة أو خيوطا من كلمات، فهناك مكون غير كلامي يفرض بالضرورة - أحياناً- فوق المكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية، وهي مهمة للوحدة الكلامية في تحديد معناها كأهمية معنى الكلمة والمعنى النحوي ويدخل كلاهما في المكون الكلامي. وهذا المكون غير الكلامي هو ما اصطلح عليه علماء البلاغيين العرب بـ"المقام"

[8] انظر Morris (1937/1979) .

[9] بوبكري (ص ١١-١٢) .

و"مقتضى الحال" وما يضارعهما من شخصية المتكلِّم والمخاطَب. وقد أفاض البلاغيون العرب في الحديث عن العناصر غير الكلامية وأهميتها لتحديد المعنى. والحال أمر يقتضي أن يؤتي بالكلام صفة مخصوصة تناسبه كـ"الإنكار" مثلاً إذا اقتضى تأكيد الأمر للمخاطب المنكر للحكم. ومن ذلك قولهم "إنَّ زَيْدًا في الدَّار" مؤكدا بـ"أنَّ" في حال الإنكار،[10] فلا فائدة للتأكيد إذا كان المخاطب غير منكر.

ولاشك أن الناظر في اللغة على وجه التقعيد والوصف والتفسير ينتهي بالضرورة إلى اعتبار المتغيرات الخارجية التي تكتنف المادة اللغوية واستعمالاتها،[11] وذلك لأن المعنى المعجمي لا يكفي في إدراك معنى الكلام فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى، بل هي جزء من معنى الكلام بما في ذلك شخصية المتكلِّم وشخصية المخاطَب وما بينهما من علاقات وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به. فإن مراعاة هذه الاعتبارات المختلفة تمثل الاتجاه الصحيح للكشف عن المعنى، وتطبيق هذا المنهج ينبغي أن يصدق على النصوص المنطوقة ذات المقام الحاضر الحي كما ينبغي أن يصدق على النصوص ذات المقام المنقضي والذي يمكن أن يعاد بناؤه بالوصف التاريخي، ومن هنا تأتي قيمة هذا المنهج لدراسة كتب التراث العربي، ذلك أن الاكتفاء بمعنى ظاهر النص يعتبر دائما سببا في قصور الفهم.[12]

٣- المعنى التداولي (البراغماتي):

إن فعالية الحوار تقتضي إستراتيجية المشاركة التواصلية أثناء التخاطب وكل أشكال المحادثات، وإن مصدر إنتاج الدلالة يعتمد على قصدية المتكلم أو المرسل، ومن ثم تستجيب لمقتضيات الدلالة المفتوحة وارتباطها بسيرورة التواصل ومنازل القصد وتفاوض شركاء التواصل حول المعنى. وعليه يصعب فصل رهانات الحوار عن فعالية القصدية وثروة المعلومة وكذا التفاعلات السننية، وعن التفاعل الذي تتيحه السياقات الثقافية والاجتماعية. ومن هنا لا بد للسيميائيات أن ترتبط بالتداوليات ارتباطًا ضروريًا، وتنفتح على مفاهيمها النظرية وآلياتها

[10] الجرجاني: *أسرار البلاغة* (ص ٤٨-٤٩).

[11] الموسى (ص ٨٨).

[12] حسن (ص ٣٧٢).

العملية.[١٣] وعلى الرغم من وجود تفاعل بين الدلالة والتداولية، فإننا نرى ليتش Leech قد ميّز بين عدد من أنواع المعاني: المعنى الأساسي، والمعنى الإضافي، والمعنى الاجتماعي، والمعنى العاطفي، والمعنى الرصفي، والمعنى الانعكاسي المعنى النظمي، والمعنى التداولي (البراغماتي). فقد قدم لنا مفهومًا للتداولية التي هي موضوع هذه الدراسة، إذ يرى أنها هي المعنى المتعلق بما أراده المتكلِّم من كلامه، وهي عنده "علم يعنى بالمعنى الذي أراده المتكلِّم من كلامه في سياق معين، بعكس الدلالة التي تُعنى بمعنى الجملة مجردة من السياق والمتكلِّم".[١٤]

وقد وضع ليتش Leech عدة نقاط أساسية انطلق منها إلى التمييز بين الرؤية التداولية والرؤية النحوية والدلالية. ويرى أن الفرق بين معنى الجملة ومعنى القول (الكلام) يتلخص فيما يلي[١٥]:

أ) **الجملة**: هي سلسلة مركبة من الكلمات تفيد معنى لغوياً مجرداً من السياق وغرض المتكلِّم؛ و**القول**: هو المعنى الحاصل من التلفظ بجملة مرتبطة بسياق معين. وعليه فقد تكون الجملة واحدة وأما الأقوال فمتعددة ومعانيها مختلفة لاختلاف الزمن والسياقات والمتكلمين والمتحدث عنهم أو عنها.

ب) الجملة تفيد معنى اصطلاحيا، والقول يفيد معنى غير اصطلاحي نستنتجه من معرفة القائل والخلفية المعرفية، والسياق. فالجملة (هَلْ لَدَيْكَ نُقُودٌ ؟) تفيد السؤال عن "توفر النقود"، ولكن غرضها هو "أقرضني بعض النقود".

٤ – العلاقة بين السياق والتداولية:

تعد قضية السياق جزءاً من قضايا التداولية الحديثة وبُعداً جوهرياً فيها، فيشير ليتش Leech إلى فكرة مقامات الكلام speech situations في تحديد الفرق بين التداولية والدلالة، وذكر أن العناصر المكونة لهذا المقام تتمثل في: "المرسل addresser والمستقبل addressee ، والسياق context ، والأهداف أو المقاصد the goal of the utterance ، وقوة فعل الكلام speech act ،

[13] يوسف (ص ١٦-١٧) .

[14] الخمّاش (ص ٦١-٦٢).

[15] Leech (pp. 5-10) .

والملفوظ utterance. ورأى أنه من الممكن أن يضاف إليها عنصرا الزمان والمكان ، ثم ذكر أن التداولية تتميز عن الدلالة في كونها تهتم بالمعنى في علاقته بمقام الكلام meaning in relation to a speech situation: "فمن التحديدات المقبولة بصورة واسعة بين التداولية والدلالية هي أن الأخيرة تتعامل مع المعنى المستقل عن السياق، بينما تبحث الأولى المعنى في السياق، فإن التوظيف ذا المعنى للغة بعد صياغته برؤيتنا للتداولية لا يقتصر على (معنى داخل السياق)، الذي يمكن إضافته ببساطة إلى مستوى آخر من المعنى يُدرس بصورة متكافئة في الدلالية،" ولعل الحقيقة التي لا تقبل الجدال هي أن معنى الجملة (المعنى الحرفي ـ أو المعنى النحوي) له أهميته الكبيرة في عملية التحليل التداولي، ومن ثم فإن نقطة البدء عند ليتش اهتمت بالتمييز بين النحو والتداولية بوصف التداولية هدفاً مباشراً ومتطوراً، ولذلك فهو يطمح من مؤلفه هذا إلى أن يساعد في استحداث مدخل جديد بين النحو والبلاغة بوصف البلاغة العلم القديم الذي يحمل بذور التداولية.[١٦]

وإن النصوص لا تدرس من حيث عناصرها اللغوية فحسب، بل ندرسها أيضًا من حيث المكونات الخارجية غير اللغوية مثل السياق وما يرتبط به من المقام ومقتضى الحال وثقافة المبدع والمتلقي، كما لا نهدف إلى معرفة العناصر والمحتويات التي قد تختص بنص ما فحسب، بل نهدف إلى معرفة الوظائف المحتملة التي يمكن أن ينجزها النص بفضل الشكل والمحتوى الخاص بهما.

فإن الدراسة التداولية للنصوص تعتمد على تأويل النص باعتباره **فعلاً للغة**، أو باعتباره أفعالاً متتالية من **أفعال اللغة**. فمن أفعال اللغة مثلاً الوعود، والتهديد، والتأكيد، والاستفهام، والطلب بفرعيه الأمر والنهي ونحو ذلك. والإنسان ينجز فعلا من أفعال اللغة، وينطق بجملة أو عدة جمل في سياق مناسب لها، وليس للفعل معنى إلا إذا تحققت بعض الشروط، وهي شروط تتصل بالسياق الذي نطق فيه بهذا الفعل اللغوي. ففي حالة الطلب مثلاً من الضروري أن يكون المتحدث راغبًا في شيء لنفسه، وأن يكون قادرا على إنجازه. فأفعال اللغة تكون مسايرة سياقاً ما عندما تكون الشروط الضرورية لتحقيقه متوفرةً. ومهمة التداولية أن تحدد هذه الشروط التي ينبغي

[16] Leech (pp. 13-14).

أن تتوفر في فعل لغوي لكي يكون متصلا بالسياق. كما أنها تبين الخصائص المميزة، المطلوب توفرها في أحوال الجمل، لكي تكون صالحة الاستعمال كأفعال لغوية مميزة.[١٧]

ويتكون السياق التداولي من جميع العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدد بدقة مناسبة أفعال اللغة. ومن بينها: الثقافة والرغبات أو الإرادة، والأسبقيات المعتبرة عند مستعملي اللغة، وعلاقاتهم الاجتماعية. وإن من خصائص النصوص أنها متواليات من الجمل، ومن الممكن أن تحلل على المستوى التداولى باعتبارها متواليات من أفعال اللغة، ومن المهم في التداولية على المستوى النصي أن تحدد الشروط التي يمكن أن تتألف منها اللغة لتكوّن متواليات من أفعال اللغة.[١٨]

٢ً. إسهامات العرب في الدراسات التداولية:

تمهيد:

لقد اهتدى علماء العربية في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والبلاغية إلى ما يحف بظاهرة الكلام من الملابسات، كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط، وما في التغيرات التي تعرض للمكونات الشكلية في الجملة نحو التقديم والتأخير، والحذف والإثبات، والقصر والإطناب، والأمثلة كثيرة على أصالة هذا المبدأ الفني في التراث البلاغي العربي، فقد تحدث علماء القرآن عن أسباب النزول وأفردوه بالتأليف، وتناول علماء الحديث أسباب الورود وتحدث الأدباء والنقاد عن أسباب وظروف الإنشاد، ومن ذلك ما أورده الجاحظ في كتابه من أجوبة فيها توجيه لما نحن فيه. فمما نقله عن بعض أهل الهند قولهم :"جِمَاع[١٩] البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول، وأن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، لا الملوك بكلام السوقة، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم".[٢٠] كما أن المفسرين قد فطنوا إلى الفرق بين ظاهر القرآن وباطنه، فكان فهمهم لهذا الفرق

[17] ديك (ص ٦٦-٦٨) .

[18] المرجع السابق (ص ٦٨) .

[19] الجماع، ما جمع عدداً أي كلمة تجمع كلمات: ابن منظور *لسان العرب*، مادة (ج م ع) .

[20] الجاحظ (١/ ٩٢-٩٣) .

تفريقا منهم بين المعنى المقالي والمعنى المقامي، كذلك اعتنى النحاة بالمقام الذي تتشكل فيه العناصر اللغوية، مشيرين بذلك إلى تأثير دلالة السياق اللغوي وسياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية، من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وغير ذلك، مما يتعلق بأحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند إليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل.

وإن دراسة عملية التواصل أو الاتصال في التراث العربي تعود جذورها إلى الدراسات التنظيرية الأولى عند الجاحظ، ثم أبي هلال العسكري، والجرجاني، والسكاكي، وحازم القرطاجني، وغيرهم من العلماء اللغويين والبلاغيين، والمفسرين والأصوليين. ولكنها في ذلك الوقت كانت ذات طابع معياري تهتم بالأثر الناتج مباشرة عن الرسالة، والشروط التي تجعل الخطاب ناجحًا، وفي هذا ملامح للتداولية الحديثة، كما أن العلماء المذكورين قد ركزوا على المرسل والمتلقي والرسالة، وعملية التأثير والتأثر، والقصد ونوايا المتكلم، والفائدة من الكلام، والإفهام، فإن هذه كلها أيضاً تعد جوهر النظرية التداولية.[٢١]

١ - أبو عثمان الجاحظ (٢٥٥هـ):

يعد الجاحظ من أقدم العلماء العرب الذين اهتموا بأفعال اللغة وما يحف بظاهرة الكلام من الملابسات، كالسامع والمقام وظروف المقال من خلال معالجته للقضايا البلاغية. ومن أهم القضايا التداولية التي عالجها الجاحظ أهمية المرسِل والمتلقِّي ودورهما في تحديد مقاصد الخطاب وتحديد معاني مكوناته اللفظية، كما تعرض لدور السياق والمقام في فهم الكلام. وهذه العناصر اللغوية وغير اللغوية هي ما عرف بعناصر الخطاب في الدراسات اللغوية والاتصالية الحديثة.

أ. المرْسِل والمُتلقي والرِّسالة عند الجاحظ:

قال الجاحظ في حديثه عن البيان[٢٢]:

[21] بوبكري (ص ١٣).

[22] الجاحظ (١/ ٧٥).

"المعاني القائمة في صدور النّاس المتصوَّرَة في أذهانهم والمتخلِّجة في نفوسهم والمتَّصِلة بخواطرهم والحادثة عن فِكَرهم مستورةٌ خفيّة وبعيدةٌ وحشية محجوبةٌ مكنونة وموجودةٌ في معنى معدومةٍ لا يعرف الإنسانُ ضميرَ صاحِبه ولا حاجة أخيه وخليطِه ولا معنَى شريكِهِ والمعاونِ له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره وإنما يُحيي تلك المعانيَ ذكرُهم لها وإخبارُهم عنها واستعمالُهم إيّاها وهذه الخصالُ هي التي تقرّبها من الفهم وتُجَلِّيها للعقْل وتجعل الخفيَّ منها ظاهراً والغائبَ شاهداً والبعيدَ قريباً وهي التي تلخِّص الملتبِس وتحلُّ المنعقد وتجعل المهمَل مقيَّداً والمقيَّد مطلقاً والمجهولَ معروفاً والوشيَّ مألوفاً والغُفْل موسوماً والموسومَ معلوماً وعلى قَدر وُضوح الدَّلالة وصوابِ الإشارة وحسن الاختصار ودِقّةِ المَدْخَل يكون إظهارُ المعنى وكلّما كانت الدلالة أوضَحَ وأفْصَح، وكانت الإشارةُ أبْيَنَ وأنْوَرَ، كان أنفَعَ وأنْجَع. والدَّلالة الظاهرةُ على المعنى الخفيِّ هو البيانُ الذي سمِعْتَ اللهَّ عزّ وجلّ يمدحُه، ويدعو إليه ويحثُّ عليه. بذلك نَطَقَ القُرآنُ، وبذلك تفاخَرَت العَرب، وتفاضَلَتْ أصنافُ العَجَم."

وإذا كان أهم ما رأته النظرية التداولية أن وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها وتفسيرها تفسيراً صورياً، وأن للغة وظائف عديدة كالأمر والاستفهام والتمني والشكر والقسم والتحذير وما إلى ذلك، وأن الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخدامنا لها في الحياة اليومية، كما أن معاني الجمل تتعدد وتتغير بحسب السياقات التي ترد فيها، إلا أن العرب قد اهتدوا إلى مثل هذه النظرية من قديم الزمان، فقد تنبهوا إلى هذه الظاهرة،[٢٣] وأدرك الجاحظ (ومن بعده من البلاغيين كالجرجاني والسكاكي وغيرهم من الأصوليين) إلى أن النصوص اللغوية لا يقتصر تفسيرها غالباً على المعنى الصوري، بل الأمر قد يحتاج إلى الإلمام بالثقافة الخارجية، أعني مراعاة العلاقة بين المرسِل، والمُتلقِّي، والرِّسالة، أو ما يُعرف بالسياق الخارجي، أو ما عرف بالمقام عند البلاغيين.

وتتجلى جذور التداولية عند "الجاحظ" من خلال تقسيمه للبيان إلى ثلاث وظائف، واهتمامه الكثير بالوظيفة التأثرية، والتي تمثل جانبًا مهمًا في دراسة التداوليات الحديثة، و يمكن إرجاع وظائف البيان، اعتمادًا على كل ما سبق إلى ثلاث وظائف أساسية، هي: الوظيفة الإخبارية

[23] زيدان (ص ٥٦-٥٧) .

المعرفية التعليمية، والوظيفة التأثرية، تقديم الأمر لجلب القلوب، والوظيفة الحجاجية، إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار. وهذه الوظائف كلها تؤدي دورًا جوهريًا في النظرية التداولية في الدراسات المعاصرة باعتبارها مقاربة تهتم بالتواصل في الدرجة الأولى، والإقناع، والتأثير، وإيصال المعنى، وتقديم الفائدة.

ب) دور المقام والسياق في تحديد المعنى:

يقول الجاحظ: " ثم اعلم، حَفِظَكَ الله، أنّ حُكْمَ المعاني خلافُ حُكمِ الألفاظ لأنْ المعانِيَ مبسوطةٌ إلى غير غاية وممتدّةٌ إلى غير نهاية وأسماءَ المعاني مقصورةٌ معدودة ومحصَّلةٌ محدودة".[٢٤] وفي المقولة الجاحظية يظهر لنا دور المعرفة والثقافة والمقام والسياق في تحديد المعنى، وفيها معالم المقاربة التداولية حيث نجد الجاحظ يشترط أن يكون استعمال المعاني مفيدًا، ومحققًا لقصد المتكلم، أي فيه منفعة، وأنّ حُكْمَ المعاني خلافُ حُكمِ الألفاظ، ذلك لأنّ معانِيَ الكلمة مترامية غير محدودة وممتدّةٌ إلى غير نهاية، ومتباينة حسب تباين المقام والمقاصد والتي تحددها القرائن والأحوال.[٢٥] ولقد بذل الجاحظ قصارى جهده للملاءمة بين مطلب مراعاة أحوال المخاطبين الذي قدمه من خلال صحيفة بشر بن المعتمر، وبين مطلبي صحة اللغة وحسن التعبير. إذ إن البيان حسب تعريف الجاحظ له هو الفهم والإفهام.[٢٦] وبذلك فهو يمتد، في المشروع والطموح، إلى نظرية في المعرفة استنباطًا ومعالجةً وتداولاً، ويتراجع في المنجز حسب مقتضيات اللحظة التاريخية معرفة ووظيفة إلى تقنية في التأثير والإقناع. في مسلسل التحول من الطموح إلى المتاح والعملي تدرج الجاحظ من كلمة بيان إلى كلمة بلاغة، ومن كلمة بلاغة إلى كلمة خطابة، ينتقل من الواحدة إلى الأخرى وكأنما يتحدث عن الشيء نفسه. وقد تكون دراسات العرب حول ما اصطلح عليه بالتداوليات اليوم ينقصها الاستيعاب والتجمع، فمن الممكن الوقوف على جذور الوظيفة اللغوية التداولية في الدراسات اللغوية عند الجاحظ.

[24] الجاحظ (١/ ٧٦) .

[25] المرجع السابق(١/ ٧٦) .

[26] المرجع السابق (١/ ٧٥) .

ولأن الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم وما يقتضيه ظاهر البنية وموضوع الجبلّة أوصى بشر بن المعتمر المتكلم "أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقام حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".[٢٧] فمراعاة حال المتكلِّم شكلاً ومضموناً تقف جنباً إلى جنب مع مراعاة حال المخاطَب ولهذا قال الجاحظ: "إن المفهِم لك والمفهَم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهِم أفضل من المتفهِّم وكذلك المعلِّم والمتعلِّم، هكذا ظاهر هذه القضية وجمهور هذه الحكومة"،[٢٨] وإن كلاً من المقام والمتكلِّم والمخاطَب عناصر غير لغوية وهي تمثل ضغوطا إنجازية قصوى إنْ رُوعِيَت، وحَسُنَ الكلامُ ونجحتِ العمليةُ التواصليةُ وارتقت أعلى القمم البلاغية، ولا يمكن للمعنى أن يتضح إلا باستحضار المقام الحيِّ والمتكلِّم الفطن والمخاطَب اليقظ.

٢- أبو الهلال العسكري (المتوفى ٣٩٥هـ):

ولقد تناول أبو هلال العسكري، في كتابه الموسوم بـ *الصناعتين* النظرية التداولية، العلاقة بين المرسِل والمتلقِّي وما يجري بينهما من التفاعل عند عملية الاتصال. ودرس مكونات البلاغة العامة من حيث التداول (المرسِل – المتلقِّي)، والنص (الصورة البلاغية – التناص)، وما ينبغي أن يكون عليه المرسِل من حيث معرفة مراعاة الأحوال،[٢٩] وفي ذلك يقول العسكري: "وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاما ولكل حال مقاما حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار الحالات وأعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال".[٣٠] كما أنه عني بحال الكاتب عناية خاصة لما تتطلبه وظيفة الكتابة من معارف ضرورية، إذ يرى أن أول ما يجب على المنشئ أن

[27] المرجع السابق (١/ ١٣٨-١٣٩) وانظر صمود (ص١٥٧-١٥٩) .

[28] الجاحظ (١/ ١١-١٢) .

[29] العمري (ص ٢٩٩) .

[30] العسكري (ص ١٣٥) .

يختاره الألفاظ والمعاني المناسبة، كما أنه يختار اللحظة، فإن تبين له أن طبيعته لا تسعفه في الكتابة تحول إلى غيرها من الصناعات.[٣١] قال العسكري: "ينبغي أن تعلم أن الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمة وآلات كثيرة من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعاني وإلى الحساب وعلم المساحة والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة وغير ذلك مما ليس هاهنا موضع ذكره وشرحه لأنا إنما عملنا هذا الكتاب لمن استكمل هذه الآلات كلها وبقى عليه المعرفة بصنعه الكلام وهي أصعبها وأشدها".[٣٢]

كما أنه، في باب "الإيجاز والإطناب" تناول أحوال المخاطَب في مناسبات عدة، وخاصة في تنظيم الخطاب، فمرجع الإيجاز والإطناب في رؤيته هو حال المخاطَب، "فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في النطق".[٣٣] وكذلك الشأن في الحديث عن المعاني المناسبة لكل جزء من الكلام، وما يكون للوصل والفصل من أثر في النفوس. وتعرض للخطأ في المعنى، ويرى أن عدم إصابة المعاني يرجع إلى عدم مناسبتها لحال المخاطَبين، "لأن الكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال وصار سببا للملال فذلك هو الهذر والإسهاب والخطل وهو معيب عند كل لبيب"،[٣٤] وهذه ناحية من النواحي التي تُعنى بها الوظيفية التداولية في اللسانيات الحديثة.

ويشير العمري إلى أن دراسة الإرسال والتلقي[٣٥] عند القدماء ذات طابع معياري بارز، فهي تتصرف مباشرة إلى الأثر، فلا يتعلق الأمر عندهم بدراسة وصفية تهتم بالعملية في شروطها الموضوعية أو التاريخية، بل يهتمون بالأثر الذي تتركه الرسالة أو ينبغي أن تتركه، وكيف يكون الخطاب ناجعًا، ومن ثم تصبح للبلاغة سلطة أمام النص. ومن هنا يكون الحديث عن المرسِل حديثًا عن المتلقِّي في الوقت نفسه، أو هو في الحالتين مظهر لشيء واحد، وتلاحظ هذه الظاهرة بكل

[31] العسكري (ص ١٥٣).
[32] المرجع السابق (ص ١٥٣-١٥٤).
[33] المرجع السابق (ص ١٥٤).
[34] المرجع السابق (ص ١٧٣-١٧٥).
[35] العمري (ص ٢٩٣).

وضوح عند الجرجاني. وهذا بعد من الأبعاد المهمة في البلاغة العربية، كما أنه هو بعد جاحظي في أساسه، فالتداولية أساس في البلاغة العربية. ولا شك أن مراعاة الظاهرة غير اللغوية، وما يكتنفها من الثقافة الخارجية أو الاجتماعية، والتي أشار إليها بشر بن المعتمر، ونص عليها الجاحظ، مما تبنّتها اللسانيات التداولية المعاصرة.

وكل ما سبق من جهود العرب اللغوية يؤيد القول بأن العلماء العرب قد تنبهوا إلى هذا النوع من اللسانيات (التداولية) في وقت مبكر خلال تناولهم للقضايا البلاغية وإن جانبهم الجمع والتفصيل والاستيعاب. فقد فهموا ما للعناصر اللغوية وغير اللغوية من التأثير والتأثر بين المرسِل والمتلقِّي. فقد بيَّن لنا العلماء العرب أن مراعاة حال المتكلِّم شكلاً ومضمونًا تقف جنبًا إلى جنب مع مراعاة حال المخاطَب، ولا يمكن للمعنى أن يتضح ما لم يسعفه المقام الحي والمتكلم الفطن والمخاطب اليقظ. وعلى الرغم من التوسع والإبداع في دراسات اللسانيات الحديثة، فليس من العدل العلمي صرف النظر وعدم الاعتراف بجهود العرب والآثار النفيسة التي تركوها في قضايا اللسانيات الحديثة في مختلف اتجاهاتها الاجتماعية والدلالية والوصفية والتاريخية.

٣- عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ):

للجرجاني مكانة غير منسية في تاريخ البلاغة العربية على وجه الخصوص، وفي تطور الفكر اللغوي العربي على وجه العموم، فقد أشار الجرجاني إلى عملية التواصل في أكثر من موضع في قضايا بيانية ونقدية، إذ تحدث عن قضية المعنى ووضوحه، ويرى أن التواصل الذي يكون نتيجة لتعب وكد وإعمال للفكر هو التواصل الذي يُعجب به المتلقِّي في الخطاب والشعر، كما فصّل الكلام في ثقافة المتلقِّي وأهمية المقام في تحديد المعنى.

أ) دور ثقافة المتلقِّي في فهم الخطاب:

جعل عبد القاهر الجرجاني المتلقِّي عنصراً فاعلاً في تحديد المعنى وتوليده أو اختراعه حين أسند للمتلقِّي مهمة جليلة في الاستنتاج والعمل العقلي والتخيّلي للوصول إلى مغزى الخطاب،

ففعل المتلقِّي قائم على الروية وإعمال النظر في استخراج المعنى، والاستدلال على المعنى المخفي بالمعنى الظاهر أو المحذوف بالمعنى الباقي.

كما يرى أن تهدِّي المتلقي إلى النظم البليغ لا يتم إلا بواسطة الإلمام بالنحو الذي ينسج العلاقات بين أجزاء التراكيب، منظورا إليها من زاوية المعنى المتبوع لا اللفظ التابع، فـ "لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلَّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو تعمد إلى اسمين، فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيدا له أو بدلاً منه، والأمر على ما قلناه، من أن اللفظ تَبَعٌ للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداء حروف، لما وقع في ضمير، ولا هجس في خاطر، أنه يجب فيها ترتيب ولا نظم".[٣٦]

والنظم عند الجرجاني يعني ضم عناصر الكلام بعضها إلى بعض، ضماً معيناً يسميه الجرجاني بمسميات توحي كلها بالارتباط القائم على التناسب والانسجام كالتأليف والتركيب، والترتيب، والنظم، والنظام والنضد، والنسق، والتصوير، والنسج والتحبير.[٣٧] وهذا الضرب من الضم الذي يتم وفق"معاني النحو" يؤول بالمجموعة إلى الوحدة، ويفضي بفضل اللُّحمة التي يوجدها بين عناصر مختلفة إلى شيء واحد لا يمكن تجزئته، وفي ذلك يقول الجرجاني:"واعلم أن مَثَلَ واضع الكلام مَثَلُ من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت: ((ضرب زيدٌ عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له)) فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معان كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم كلها لتفيده أنفس معانيها، وإنما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو(ضرب) وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق، وإذا كان كذلك بان منه وثبت أن المفهوم من مجموع الكلم معنى واحد لا عدة معانٍ، وهو إثباتك زيداً فاعلاً ضرباً لعمرو في وقت كذا، وعلى صفة كذا، ولغرض كذا، ولهذا المعنى تقول: إنه كلام واحد".[٣٨]

[36] الجرجاني: *دلائل الإعجاز* (ص٥٥ -٥٦) .

[37] الجرجاني: *أسرار البلاغة* (ص ٨٠) .

[38] الجرجاني: *أسرار البلاغة* (ص٤١٢-٤١٤) .

وما نص الجرجاني المشهور"فليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"[٣٩] إلا قاعدة تحكم تلك الشفرة المخصوصة بين المبدِع والمتلقي، حتى لا يفقد الأخير سبل التهدي إلى مقاصد الأول، وتتشعب به احتمالات القراءة، ولعل مبحث الفصل والوصل عند الجرجاني من أدل المواضع التي يتبين فيها خصوصية التلقي وأهمية السياق ومقتضى الحال في الوقوف على المعنى.

ب) أهمية المقام عند الجرجاني:

يعرج الجرجاني على قضية "التداولية" عند تعرضه لظروف التلقِّي أو ما يسميه"المقام"، الذي لا يغفله في غير ما موضع، وتأثير عناصره على المقال دلالياً وتركيبياً، وذلك يشمل العلاقة بين المتخاطِبين في موقف التلقي، والتضمنات التي تكون عاملاً مهماً في تحديد مدلول المقال وصيغته التركيبية، حيث يشير في مفهومه للنظم إلى *فعل القول* أولاً، وهو المستوى الدلالي الذي تترتب فيه المعاني المجردة في نفس المتكلم ومستوى التركيب الذي تتعالق فيه المعاني حسب قواعد اللغة التركيبية، ثم البعد الصوتي حيث تتخذ تلك المعاني مدلولات أو ألفاظاً من معجم النسق اللغوي؛ و*فعل الخطاب* ثانياً، وهو يرتكز على عنصرين مهمين: عنصر الغرض الذي يرمي إليه المتكلِّم من استفهام وتبشير وإنذار إلى غير ذلك، والتأثير الذي تركه في المتلقي، ثم عنصر التضمنات ومن بينها **العناصر المقامية** التي تتحكم في عملية الترتيب والتركيز والتأكيد، ففي المقال: ((ضرب عمرٌو زيداً)) التضمن هو((ضرب إنسان ما زيداً)) والجزء المؤكَّد هو عمرو، وعلامة تأكيده هو تقديمه.

وأما في المقال: ((ضرب زيداً عمرو)) التضمن هو((ضرب عمرو إنساناً ما))، والجزء المؤكَّد هو (زيداً) وعلامة تأكيده تقديمه. وبه تمَّحي في النظم الفواصل بين اللفظ والمعنى، وتتعزز العلاقات التي تربط بين الأسماء والأفعال، أو بين الأسماء والأسماء أو بين هذه وتلك ومكملاتها من الحال والتمييز والتوابع والمجرورات، تتكامل بها نظرية النظم، والعلاقات بين أجزائها، في شكل من أشكال البلاغة النحوية أو النحو البلاغي، أي أن الجرجاني يطور مفهوم العلاقات بين

[39] المصدر السابق (ص٨١) .

أجزاء النظم، فلا يقف بها وبالنظم عند مجرد الترتيب والتنسيق وحسن الأداء، وإنما يريد لفكرته أن يصل الكلام عن طريقها إلى الحد الذي تحسن فيه الدلالة، وتتم، ثم تظهر في صورة أنيقة مُعجبة تستولي على لب المتلقِّي، ولا ينفك الجرجاني ينظر إلى مقدار الجهد الذي يستنفده النص من المتلقِّي، فهو وإن راق له أن يشارك في إتمام الدائرة الإبداعية للنص، لكنه يضيق بـ(المسالك المجهولة) كما في قوله: "والألفاظ لا تراد لأنفسها، وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني، فإذا عدمت الذي له تراد، أو اختلَّ أمرها فيه، لم يعتد بالأوصاف التي تكون في أنفسها، وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحدا، ومن ههنا رأيت العلماء يذمون من يحمله تطلب السجع والتجنيس على أن يضيم لهما المعنى، ويدخل عليه من أجلهما، وعلى أن يتعسف في الاستعارة بسببهما، ويركب الوعورة، ويسلك المسالك المجهولة، ذلك أنه لا يتصور أن يجب بهما، ومن حيث هما، فضل، ويقع بهما من الخلو مع المعنى اعتداد".[٤٠]

ومن اللسانيين المعاصرين الذين اعتنقوا هذه النظرية وتجنشتاين Wittgenstein وأوستين Austin واللغة عندهما قد تستخدم لوصف العالم حولنا غير أن هناك حشد من الاستعمالات الأخرى لا تصف وقائع العالم، كالأمر، والاستفهام، والشكر، واللعن، والدعاء، وأُطلق على هذا النوع من الاستعمالات ألعاب اللغة. وقد أنكر أوستن أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارات الإخبارية هي وصف حال الوقائع وصفاً يكون إما صادقاً أو كاذباً، والأفعال الكلامية عنده قسمان[٤١]: الإخبارية والإنجازية، فالإخبارية تخبر عن وقائع العالم الخارجي وتكون إما صادقة وإما كاذبةً، والإنجازية تنجز بها في ظروف ملائمة وتسمى الأفعال الإنجازية أو الأدائية، ويرى أن الأدائية إما أن تكون صريحة مثل ((أعدك أن أكون هناك))، أو تأويلية مثل ((سأكون هناك)). فالمثال الأول صريح الدلالة على الوعد، ولا يحتمل معنى آخر، وأما المثال الثاني قد يكون وعداً وقد يكون غيره.[٤٢] فالوعد عادة يقال في سياق يعتقد فيه أن المخاطَب يتطلع إلى هذا الوعد ويتعلق به، وأما قولك ((سأكون هناك))، فلا يكون مثل هذا القول وعداً، فالسياق أو المقام هو المعيار لتحديد المعنى.

[40] الجرجاني: *دلائل الإعجاز* (ص٥٢٣).

[41] Austin (p.3).

[42] Austin (p.57).

٤- أبو يعقوب السكاكي (٦٢٦هـ):

يعد السكاكي رائدًا للتصور المدرسي الذي استقر للبلاغة العربية منذ عصره إلى اليوم، ذلك التصور الذي يقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم: المعاني والبيان والبديع. هذا، مع العلم بأن السكاكي لم يجعل البديع في مستوى واحد مع المعاني والبيان، ولم يعتبره عِلماً بل جعله مجرد ذيل للمعاني والبيان يضم صورا تعبيرية لا يجمعها غير كونها ذات طبيعة تحسينية: محسنات لفظية ومعنوية.[٤٣]

وقد تناول السكاكي البديع من المنظور التداولي، فربطه بمبحث الاستدلال، والصور المقصودة هي: التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية، وهي مادة "علم البيان"، وفي هذا السياق أُلحقت بالخصم التاريخي للبديع، الذي دعي علم المعاني بعد أن كان مشتتا في مباحث اللغويين ودارسي النص القرآني، قبل أن يبلور الجرجاني قضاياه في إطار السؤال البلاغي، ضمن مبحث "النظم" حيث المدار على المقاصد أي التداولي. إن علاقة المعاني بالبديع في تصور السكاكي كعلاقة البديع عامة بالبيان عند الجاحظ. "وإذا تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرفعه أعلى درجات التحسن، فهذه وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها، وهي قسمان، قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ"،[٤٤] فيلتقي (علم المعاني) عند السكاكي مع (البيان) عند الجاحظ، ويتكامل معه في كون كل واحد منهما يبحث عن علاقة الخطاب بالأحوال والمقاصد وهو ما يعرف اليوم بالتداولية، أي في "البعد التداولي" للخطاب. الأول: المعاني في المستوى اللساني الدلالي، والثاني: البيان في المستوى اللساني النفسي.

الأحوال والمقاصد عند السكاكي:

لقد بذل الجاحظ قصارى جهده للملاءمة بين مطلب مراعاة أحوال المخاطبين الذي قدمه من خلال صحيفة بشر بن المعتمر كما أسلفنا، وبين مطلبي صحة اللغة وحسن التعبير. وبعده أوضح الجرجاني أن "الصحة" تحصيلُ حاصل، ثم اهتم السكاكي بعد الجرجاني بملاءمة الكلام

[43] العمري (ص ٤٧٩-٤٨١).

[44] السكاكي (ص ٤٢٣).

للغرض منه، مع احتمال تفاوت دلالته وحسنه. وكان السكاكي يبحث عن العلم الذي يصون المتحدث من الخطأ في: ١) مطابقة الكلام لقواعد اللغة، ٢) ثم مطابقته لأحوال ومقامات التخاطب، ٣) ثم اتصافه بالحسن والقبول.[٤٥]

وإذا كان الصواب اللغوي مسألة معيارية عامة لا تفاوت بين المتكلمين فيها، لأنها قابلة للتحقيق على مستوى واحد، وكان التحسين فَضْلة يتحقق الغرض من الخطاب بدونها، في تصوره، فإن مركز الخطاب هو مطابقة الكلام للغرض منه، ثم تفاوتُ الدلالة في التعبير عن الغرض، أي المعاني ثم البيان.

فالسكاكي مشهور اليوم عند اللسانيين التداوليين وعلماء المنطق من خلال "علم المعاني" و"علم البيان" وموقفه عن المقام التخاطبي والاستلزام الخطابي. وإن أهمية عمله تكمن في اكتشاف منطقة تقاطع النحو والمنطق والشعر، أي في وصوله شخصياً إلى عاصمة البلاغة، وبذلك خرج من خطاب التنافي بين النحو والمنطق والشعر. وبناء على ما سبق فإن بلاغة السكاكي تقع عند تقاطع ثلاثة مباحث متداخلة ومتنافرة في الوقت نفسه، هي النحو والمنطق والشعر.

وحين انتهى السكاكي من بلورة علمي المعاني والبيان عرَّف البلاغة من خلالهما فقال: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[٤٦] وهذا التعريف هو تعريفٌ لعلم المعاني الذي يعنى بخواص التراكيب، وعلم البيان وما فيه من أنواع التشبيه..الخ. فالبلاغة، في نظرية السكاكي، هي المعاني والبيان. وقد عرّف المعاني والبيان مرة أخرى (بعد حديثه عن البديع دون أن يأخذه بعين الاعتبار) تعريفا أكثر صورية وتجريدا، إذ عوض صور البيان (التشبيه والمجاز والكناية) بعبارة: صياغات المعاني: فـ"علم المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني، ليُتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها".[٤٧]

كما أن السكاكي تحدث عن وظيفة تداولية في مقام تقديم المسند إليه، كالتشويق والتعظيم والتلذذ والتخصيص، لها اتصال بترتيب المعاني في النفس، وتقديم بعضها على بعض، وليس

[45] العمري (ص ٤٩٠-٤٩١).

[46] السكاكي (ص ٤١٥).

[47] المصدر السابق (ص ١٦٢).

بالتقديم اللفظي للمسند إليه، وهناك فرق بين أن يكون التشويق أو التفاؤل أو التعظيم أو غيرها سببا في تقديم بعض المعاني في النفس على بعض، وبين أن يكون سببا في تقديم المبتدأ على الخبر لفظا. قال السكاكي: "إذا قلت: ((زيدٌ المنطلقُ))، قلته لمن يطلب أن يعرف حكما لزيد، باعتبار تعريف العهد إن كان المنطلق عنده معهودا، أو باعتبار تعريف الحقيقة واستغراقها. وإذا قلت ((المنطلقُ زيدٌ)) قلته للمتشخص في ذهنه المنطلق بأحد الاعتبارين: وهو طالب لتعيينه في الخارج.[٤٨] فالدراسة التي قام بها السكاكي كانت أشبه بعلم النص عند اللسانيين المعاصرين، ولا يمكن هنا الحديث عن التطابق، ولكن يمكن اكتشاف الكثير من عناصر الالتقاء بين منحى السكاكي ومنحى علماء النص في تناولهم النص في أبعاده النحوية واللغوية والمعرفية والاجتماعية وغيرها.

ويضاف إلى ما سبق أن الإنشاء الطلبي، على حد قول السكاكي ومن معه من البلاغيين، لا تنتهي وظيفته عند **الأمر**، و**الدعاء**، و**الالتماس** بما فيه النداء والاستفهام والتمني، بل إن هذه الصيغ الأسلوبية تخرج عن مقتضى دلالاتها الظاهرة إلى أغراض وإفادات تواصلية بحسب ما يقتضيه المقام. فالأمر على سبيل المثال لا الحصر يخرج إلى الدعاء، أو الالتماس، أو التهديد، أو التعجيز، أو الإرشاد، وكذلك الشأن مع غير الأمر من أساليب الإنشاء الطلبي. وفي ذلك يقول السكاكي:"ومتى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام" ومثالاً لذلك أورد السكاكي قولك لمن همك همه: ((ليتك تحدثني))، وفي هذه الحالة امتنع إجراء التمني على أصله، ويتحول الكلام إلى معنى السؤال بمعونة قرينة الحال المانعة عن إرادة المعنى الأصلي.[٤٩]

وتعدّ التعبيرات الاستفهامية من الظواهر اللغوية التداولية التي تناولتها الدراسات البلاغية السكاكية، ذلك لأن الاستفهام كثيرا ما يرد خارجا عما وضع له في الأصل فيخرج عن المعنى التركيبي النحوي إلى المعنى التداولي ويكتسب معنىً آخر تداولياً تحدده عناصر أخرى غير لغوية مثل السياق ومقتضى الحال والثقافة بين المتحاورين. وعلى سبيل المثال لا الحصر، قد يكتسب الاستفهام معنى **الطلب**، أو **الإنكار**، أو **التقرير**، أو **التعريض**، أو **التشويه**، أو **التهويل أو التمني**،[٥٠]

[48] المصدر السابق (ص ٢١٣) .

[49] المصدر السابق (ص٣٠٤-٣٢٨) .

[50] الهاشمي (ص ٩٥-١٠٣) .

إذ أن تأويله في بعض الأحيان يحتاج إلى العلم بالموقف والمقام والسياق الخارجي، ومعرفة العلاقة بين المتكلم والمخاطب وقصد المرسل، وليس بالاعتماد، كليًّا، على علاقة أنظمة العلامات، أي المكونات الشكلية. وفي ذلك يقول السكاكي: وإذا قلتَ: ((هل لي من شفيعٍ؟)) في مقام الذي لا يسع إمكان التصديق بوجود الشفيع امتنع إجراء الاستفهام على أصله، وتكتسب الجملة معنى التمني بمعونة قرائن الأحوال. كما أن الاستفهام قد يكتسب معنى التوبيخ، والإنكار والزجر بمعونة القرائن، كقولك لمن تراه يؤذي الأب: ((أَتَفعل هذا؟!))، وفي مثل هذه الحالة امتنع توجه الاستفهام، والمعنى: هذا نوع من التصرف قبيح ولا يليق بالمرء.

٥- حازم القرطاجنّي (٦٨٤هـ):

يعد حازم القرطاجني من علماء التراث الذين تناولوا قضايا التداولية، فقد أشار إلى بعض القضايا التداولية مثل البعد النفعي الذي ترمي إليه العملية الإبلاغية، وأهمية التعرف على مقاصد المتكلم، ودور السياق في تحديد المعنى، كما تناولت دراسته قضية المرسِل والمتلقِّي.

أ) احترام مقاصد المتكلم والسياق:

لا يعتبر القرطاجني الكلام الذي لا يدل على معنى، كلاماً، وهو هنا يشير إلى فكرة القصد، إذ إنه يجعل الفائدة المتداولة بالقصد، ونتلمس تصوره التداولي من خلال قوله: "لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وإلى استفادتهم من حقائق الأمور وإفادتها وجب أن يكون المتكلم يبتغي إفادة المخاطَب أو الاستفادة منه".[٥١] ونرى أن قول حازم هنا نوع من التخاطب الذي لا يبعد عن مفهوم التواصل المشار إليه. وإذا عدنا إلى نص حازم ألفينا اللغة تأخذ معنى الكلام، فاللغة هي الكلام، أما الغرض المقصود منها فهو الاحتياج الإنساني من أجل:١)

[51] القرطاجني (ص ٣٤٤-٣٤٥).

التفاهم، ٢) معاونة بعضهم بعضا، ٣) تحصيل المنافع وإزاحة المضار، بل وقد صرح القرطاجني بطرفي العملية التواصلية وهما المتكلِّم والمخاطَب.

ب) المرسِل والمتلقِّي:

وإذا كان المتكلِّم بوصفه جزءاً من عملية الاتصال تؤدي وظيفته في إصدار الرسالة ويفصح بها عن أغراضه، فلابد له من مخاطَب تكمل به عملية التواصل، إذ إن الخطاب ذو اتجاهين، ولكل خطاب مرسِل ومرسَل إليه أو متلقّ، فالوظيفة الأساسية لأية لغة من اللغات هي الوظيفة التواصلية بين مرسِل ومرسَل إليه. ويفصل القرطاجني شارحاً نوع العلاقة والوظيفة التي تجمع المتكلِّم والمخاطَب بقوله: "المتكلِّم يبتغي إفادة المخاطَب، أو الاستفادة منه، إما بأن يلقي إليه لفظا يدل على المخاطَب وإما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة يجمع بجميع أحواله أو بعضه بالقول".[٥٢] ويجعل القرطاجني الاتصال بين طرفي العملية خاضعا لمقاصد محددة لدى المتكلم، ويبتغي تحقيق أهداف معينة لدى المخاطَب. ونلاحظ أن مفاهيم نظرية التواصل الحديثة عند القرطاجني في تعريفه تتكون من: المرسِل + المرسَل إليه + الرِّسالة + والإفادة + الاستفادة.

وعلى هذه الفكرة ترى راضية بوبكر أن الكلام الذي يكون دليلاً على المعنى، يشكل أساس الدراسات اللسانية الحديثة، والتفاهم الذي يتحدث عنه القرطاجني هو تحقيق التواصل بين الأفراد المتحاورين، وهذا يدخل في نطاق التداولية التواصلية، أي كلام مرسِل يحمل قصدًا ومعنىً وفائدةً، يريد المتكلِّم إيصالها إلى المتلقِّي. وبالإضافة إلى القصد والمنفعة والإفهام، يشير القرطاجني إلى قضية التأثير بين المتكلِّم والمتلقِّي، إذ يرى أن التأثير بينهما ضروري في العملية التواصلية وقال: "وجب أن يكون المتكلِّم يبتغي إما إفادة المخاطَب أو الاستفادة منه..أو بعضها بالقول". وقسم القرطاجني ردود الفعل التي يثيرها المتكلِّم في المخاطَب إلى عملية سلوكية، ووجدانية.[٥٣]

[52] المصدر السابق (ص ٢٤٤).

[53] بوبكري (ص ١٤).

خاتمة:

يتبين فيما سبق أن التراث العربي في مختلف مجالاته البلاغية والنحوية الأصولية وغيرها قد أسهم إسهاماً كبيراً خلال ما قدمه أعلام التراث من قضايا لغوية-بلاغية وما عرف اليوم باللسانيات التداولية وإن كانت مجهوداتهم ينقصها الاستيعاب والشمولية. ولا شك أن التأريخ لأي علم من العلوم تواجهه جملة من الصعوبات العلمية والمنهجية. فقد استطاع الكثير من علماء التراث في مؤلفاتهم البحث عن القضايا اللغوية -البلاغية في مستوى التصورات الكبرى وحتى في بعض قضاياها الجزئية. والملاحظ أن العلماء العرب عامة كثيراً ما كانوا يركزون على دعامة الإفادة، ذلك أنها هي هدف التواصل بين مستعملي اللغة.

وإذا كانت قضية السياق، وفكرة مقام الكلام وعناصره المتمثلة في المرسِل والمستقبِل والسياق والأهداف أو المقاصد، وقوة فعل الكلام والملفوظ من مكونات التداولية الحديثة وبُعدها الجوهري في نظرية ليتش (Leech) وغيره من العلماء التداوليين المعاصرين، فلا شك أن العلماء العرب ومن بينهم الجاحظ، و العسكري، والجرجاني قد تناولوا أهمية التفاعل بين السياق اللغوي وغير اللغوي في تحديد المعنى. كما أنهم قد ناقشوا العلاقة التكاملية بين المرسِل والمتلقِّي وما ينبغي أن يكون عليه المرسل من حيث معرفة مراعاة الأحوال وذلك من خلال دراساتهم البلاغية وغير البلاغية، وفصّل السكاكي والقرطاجني القول في أهمية مراعاة الأحوال والمقاصد. فالتداولية ظاهرة في البلاغة العربية.

وقد اهتدى هؤلاء العلماء إلى أنّ الأخذ بعناصر التراكيب في كثير من الأحايين لا يكفي للوقوف على معنى الكلمة، ذلك لأن الأفعال الكلامية تتوقف على العناصر اللغوية وغير اللغوية. وقد اهتدوا كذلك إلى أهمية المقام ومقتضى الحال في الوقوف على المعنى، إذ أن مراعاتهما مما يؤثر في تركيب الجمل وحشر مكوناتها وفق ترتيب معين، كما رؤوا أن عدم اعتبار المخاطَب قد يؤدي إلى حالة معاكسة تماما لما كان المتكلِّم يروم إليه، ذلك لأن الشبكة التي تؤسس عملية التخاطب شبكة معقدة وهي تؤكد أن ظروف المقال غير اللغوية كالمتكلِّم والسامِع تقوم بدور هام في تحديد خصائص الخطاب، ذلك أن جزءاً كبيراً من معاني المفردات والجمل المستعملة تعتمد على الخبرة

المشتركة بين المتكلِّم والمتلقِّي. وكل ما سبق من الدراية العلمية يبرهن ما للعلماء العرب من المساهمات الحاسمة في اللسانيات التداولية.

المصادر والمراجع

بوبكري، راضية خفيف: جمادى الأولى ٢٠٠٤، **"التداولية وتحليل الخطاب الأدبي: مقاربة نظرية"**، *الموقف الأدبي*، العدد ٣٩٩.

الجاحظ، أبو عثمان: ١٩٨٦، ***البيان والتبيين***، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة.

الجرجاني، عبد القاهر: ١٩٨٤، ***أسرار البلاغة***، تحقيق:محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي- القاهرة.

الجرجاني، عبد القاهر: **١٩٩١**، ***دلائل الإعجاز***، تحقيق:محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي- القاهرة.

حسن، تمّام: ٢٠٠١، ***اللغة العربية معناها ومبناها***، دار الثقافة - المغرب.

الخمّاش، سالم سليمان: ١٤٢٨ هـ، ***المُعْجَم وعلم الدّلالَة*** - http://www.khamash.cjb.net

ديك، فن:١٩٩٦، ***نظرية الأدب في القرن العشرين***، ترجمة: محمد العمري، أفريقيا الشرق – بيروت.

زيدان، محمود فهمي:١٩٨٥، ***في فلسفة اللغة***، دار النهضة العربية- بيروت.

السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد: ١٩٨٣، ***مفتاح العلوم***، دار الكتب العلمية – بيروت.

صمود، حمادي: ١٩٩٤، ***التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس***، كلية الآداب منوبة - تونس.

العسكري، أبو هلال: ١٩٨١، ***الصناعتين: الكتابة والشعر***، دار الكتب العلمية – بيروت.

العمري، محمد: ١٩٩٩، ***البلاغة العربية، أصولها وامتدادها***، أفريقيا الشرق – بيروت.

القرطاجنّي، أبو الحسن حازم: ١٩٨٦، ***منهاج البلغاء وسراج الأدباء***، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

الموسى، نهاد: ١٩٨٧، ***نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي***، دار البشير – عمان.

الهاشمي، السيد أحمد: ١٩٩٩، ***جواهر البلاغة في المعاني، والبيان، والبديع***، تحقيق: محمد التونجي، مؤسسة المعارف – بيروت.

يوسف، أحمد: ٢٠٠٤، ***سيمائيات التواصل وفعالية الحوار***، *المفاهيم والآليات*، جامعة وهران – الجزائر.

Austin, J.L. 1962. *How to do Things with Words*. MA: Harvard University Press.

Ayer, A.J. 1990. *The Origins Of Pragmatism: Studies in the Philosophy of Charles Sanders Peirce and William James*. London: Macmillan Press.

James, William. 1907. *Pragmatism, A New Name for Some Old Ways of Thinking: Popular Lecture on Philosophy*. New York: Longmans Green and Co.

Leech, Geoffrey N. 1983. *Principles of Pragmatics.* London and New York: Longman.

Morris, Charles W. 1937. *Logical Positivism, Pragmatism and Scientific Empiricism*. Paris: Hermann et Cie. Reprinted, New York: AMS? Press, 1979.

Pierce, C.S. 1901. "Truth and Falsity and Error." In *Dictionary of Philosophy and Psychology* V.2, 716-720. Ed. by James Mark Baldwin. New York: MacMillan.

Wittgenstein, L. 1958. *Philosophical Investigations.* Ed. by G.E.M. Anscombe and R. Rhees. 2nd edition. Oxford: Blackwell

ملحق مصطلحات – Appendix

guidance	الإرشاد
metaphor	الاستعارة
language use	الاستعمال اللغوي
redundancy	الإطناب
speech acts	الأفعال الكلامية
command	الأمر
denial	الإنكار
brevity	الإيجاز
implicit	الباطن
rhetoric	البلاغة
emphasis	التأكيد
warning	التحذير
pragmatics	التداولية
structure	التركيب
simile	التشبيه
distortion	التشويه
definiteness and indefiniteness	التعريف والتنكير
exemplification	التمثيل
wishing	التمني
threatening	التهديد
sentence	الجملة

deletion and retention	الحذف والإثبات
prayer	الدعاء
meaning	الدلالة
message	الرسالة
context	السياق
linguistic context	السياق اللغوي (ينظر: العناصر اللغوية)
non-linguistic context	السياق غير اللغوي (ينظر: العناصر غير اللغوية)
thanking	الشكر
request	الطلب
explicit	الظاهر
meaning in relation to a speech situation	علاقة المعنى بمقام الكلام
linguistics	علم اللغة
communicative process	العملية التواصلية
linguistic components	العناصر اللغوية
non-linguistic components	العناصر غير اللغوية
philosophy of Language	فلسفة اللغة
speech act	قوة فعل الكلام
speech	قول
indirect speech/metonymy	الكناية
pragmatics (pragmatic linguistics)	اللغويات / اللسانيات التداولية
recipient	المتلقي
addresser	المرسِل

addressee	المستقبل
subject and predicate/ topic and comment	المسند والمسند إليه
the goal (of utterance)	المقاصد/ الأهداف
speech situations	مقامات الكلام
the context of situation	مقتضى الحال
social meaning	المعنى الاجتماعي
primary/main meaning	المعنى الأساسي
secondary meaning	المعنى الإضافي
pragmatic meaning	المعنى التداولي
implicit meaning	المعنى الضمني
situational meaning	المعنى المقامي
utterance	الملفوظ
text	النص
functional	وظيفية
pragmatic function	الوظيفة التداولية
promise	الوعد